السرد الروائي
ونظرية الاحتمال التأويلي

عبد الرحمن التمارة
جامعة مولاي إسماعيل

مدخل

يقترن موضوع "السرد الروائي ونظرية الاحتمال التأويلي" بعدّة مقولات تصنيفية؛ مقولات قد تفضي للوعي بالعناصر البؤرية التي يستدعيها الحديث عن نظرية الصراع التأويلي، من خلال التجربة الإبداعية الأدبية ممثّلة في السرد الروائي. من هنا، أمكن الحديث عن ثلاث مقولات مركزية، ذات أساس نقدي منهجي، وهي: **المجال والفعل والذات**. هكذا، تَظهرُ المقولة الأولى (المجال) مرتبطة بمجال إبداعي ساهم في بلورة وعي فني وفكري بالعالم والإنسان، بامتداداته المختلفة والمتعدّدة. وتَتجلّى المقولة الثانية (الفعل) مقترنة بالتأويل باعتباره آلية منهجية وفعلاً إبستيمولوجياً لدراسة النص الروائي، وكشف ثراءه الدلالي وبنائه الجمالي وحمولته الثقافية. وتَبرزُ المقولة الثالثة (الذات) متّصلة بالقائم بفعل التأويل. إنّه فاعل محكومٌ، بالضرورة، بالتعدّد، فينتجُ عن ذلك تنوُّعَ التأويل وغنى أدواته في القراءة والتحليل، ومنها تأويل الرواية قصد توليد دلالاتها المتنوعة وبناء أبعادها المختلفة.

إنَّ إبراز مظاهر الاحتمال أثناء تأويل الرواية يهدف كشفَ وظيفة الاحتمال الإبستمولوجية، بوصفها وظيفة إنتاجية تفضي لبناء أبعاد متعددة ومتنوعة للنص السردي. من هنا، ستتصل الدراسة بمحاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل الرواية تقبلُ تأويلاً

محدّداً؟ وإذا كانت معالم البساطة، إن لم نقل السذاجة، تؤطر هذا السؤال، فهل اختلاف التأويلات يعبّر عن توافق بين القراء المؤولين، أم عن صراع بينهم يقوّي تعدّد الاحتمالات الدلالية؟ وإذا كانت العملية التأويلية تبرز قيمة الاختلاف وأهمية الاحتمال فهل هذا يُعبّر عن "صراع" بمعناه الحقيقي والمباشر والأخلاقي، أم أنّ الأمر متّصل بصراع إبستمولوجي أُسُّه وجود خلفيات متحكّمة في التأويل، ومستويات فهم وإدراك عوالم السرد الروائي، مما يصيّرُ انفتاح التأويل على الاحتمالات الدلالية أمراً بديهياً؟ بهذا المعنى، هل أمكن الحديث عن الاحتمال المتولّد من الفعل التأويلي، باعتباره سيرورة منهجية وتنظيمية، أم الاحتمال المنبثق من الذات المؤولة، باختياراتها المعرفية وحمولتها الإيديولوجية ومنطلقاتها النظرية؟

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تدفع إلى معالجة قضايا متعدّدة، تشتغل بوصفها عناصر منهجية تؤطر الدراسة، أفرزها التفكير في قضية السرد الروائي ونظرية الاحتمال التأويلي، من قبيل: الكينونة والوجود، ومركزية التعدّد، إبستيمولوجيا الاعتقاد (ذاتية المؤول)، وقيمة الاختلاف، وأهمية الاحتمال، والإنتاجية التأويلية (إغناء السرد الروائي).

1.الاحتمال التأويلي: محددات أوّلية

ينبني الاشتغال على موضوع السرد الروائي ونظرية الاحتمال التأويلي على تصور نقدي ومعرفي يرى التأويلَ "فعلاً ذهنياً" و"نشاطاً تخمينياً"، مما يفضي لاكتشاف النصوص السردية وعوالمها. لهذا، فإنّ تأويل الرواية، بوصفه فعلاً نقدياً، يصير ممارسة معرفية عقلانية مُنْطلقُها التفكير وأساسُها الفهم ومُنتهاها الإنتاجُ المعرفي وبناء الأبعاد وتشييد الدلالات. بهذا المعنى، فإنّ تأويل السرد الروائي يؤطره بناءٌ معرفي منهجي إنتاجي، ويحكُمُه وعي ذاتي وظيفي. هذا يُبيّن الكيفية التي يُساهمُ بها "الخلاف الهرمينوطيقي"، في إنتاج قراءات

متنوعة وتأويلات متعدّدة للسرد الروائي. لهذا، نتساءل: ما المقصود بالاحتمال التأويلي؟ وما هي المنطلقات المولّدة لهذا الاحتمال؟ وما تأثيرات هذا الاحتمال في تأويل السرد الروائي (الرواية)؟

نشير بدءاً أنّ الحديث عن "نظرية الاحتمال التأويلي" تؤطره منطلقات معرفية ترى "النظرية" صنفاً نوعياً وخاصاً من المعرفة، لا تهمُّ، هنا، كينونته وماهيته وخصائصه وسيرورة وجوده، بقدر ما يهمُّ استثمار العناصر الضابطة للمعاني الدالة على "النظرية"، ومنها "تلك المعاني الدالة على الاستغراق في التأمل الذهني الصِّرْف"[1]، قصد إدراك المقصود بالاحتمال التأويلي. من هنا، فإنّ تحديد الاحتمال التأويلي سيقترن بالسرد الروائي، لأننا ننطلق من إطار معرفي ومنهجي قوامُهُ الربط بين التأويل والسَّرد؛ حيث يَتمُّ الاشتغال على المحددات المنهجية والمعرفية في تأويل السرد الروائي بناء على مقومات ذاتية يميّزها التأمل والتحليل الفكري، ما دامت "النظرية تحليلية وتأملية"[2]. كما يتمُّ الاهتمام بمعطيات معرفية يَبنيها النظر النقدي المُجَدِّدُ للسائد في التصورات ويؤسسها فكر الاكتشاف والمساءلة ونقض المتداول والمألوف في الإنجازات النقدية حول السرد الروائي، من منطلق "أنّ النّظرية بوصفها نقداً للإدراك المألوف واستكشافاً للمفاهيم البديلة تتضمن مساءلة المسلمات أو الافتراضات ذات الأهمية البالغة في الدراسات الأدبية، وزعزعة أي شيء قديم قد تمّ به التّسليم جدلاً"[3]. بهذا المعنى، فإن غاية الدراسة تتّصل بكشفِ مظاهر الاختلاف النقدي أثناء تأويل السرد الروائي، لإبراز أهمية "الاحتمال التأويلي" في إغناء المعرفة النقدية الروائية، بفعل التأمل النقدي الخلاّق الذي يفضي لاكتشاف الجديد المعرفي. لهذا، فإنّ الحديث عن "الاحتمال التأويلي" يظلُّ مقترناً بفاعليته وإنتاجيته المعرفية، مما يُبعدهُ عن

الخوضِ في معقولية التأويل التي تمثل جزءاً من "الخلافات التأويلية"، وتظلُّ محكومة بالمقبولية.

2.الاحتمال التأويلي: الكينونة والوجود

يتطلّب الحديث عن "الاحتمال التأويلي" الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل **يوجد** "**احتمال**"، واحد أو احتمالات محدّدة، أثناء **تأويل** الرواية؟ وإذا كان التأويل مفتوحاً على احتمالات متعدِّدة، فما هي **أصولها**؟ وكيف تتحدّد **ملامحها** في المنجز النقدي المتّصل بتأويل الرواية؟

يتحدث ديفيد كوزنز هوي Hoy عن التأويل فيقول: «تتطلّب حركة التأويل المستمر وعياً بالظلال التي تلقيها التأويلات القديمة على النصوص، كما أنها تتطلب محاولة إضاءة هذه الظلال بتسليط ضوء جديد عليها. ونظراً إلى أنّ كلَّ تأويلٍ يُعدّ متحيّزاً دائماً، يكون كلُّ تأويل، بالحدّ الذي يُضيء أجزاءً مختلفة من مادة الموضوع، نقداً ضمنياً في الأقل لتأويلات أخرى"[4]. إنّ مفاهيم "الوعي" و"المحاولة" و"الإضاءة" و"الجديد" و"التَّحيُّز" و"النقد" يمكنُ النظر إليها من زاوية التنوّع في الاحتمالات الدلالية التي يمكنُ الوقوف عندها أثناء ممارسة التَّأويل؛ بوصفها احتمالات تأويلية متولّدة من النَّظر إلى "النّص الروائي" ضمن سيرورة تطورية، فتتبدى الاحتمالات التأويلية المقترنة بالرواية في زمن الماضي (تأويلات قديمة) مخالفة، بالضرورة، للاحتمالات المتّصلة بالرواية في زمن الحاضر (تسليط ضوء جديد عليها)، وستكون مُغايرة، بالتأكيد، للاحتمالات المرتبطة بتأويل الرواية في زمن المستقبل. كما أن المفاهيم السابقة تُسهمُ في تأكيد انفتاح التأويل على احتمالات متعدّدة ومتنوعة بناءً على فَهمِ الأبعادِ السياقية للنّص الروائي الخاضع للتأويل، وذلك من منطلق التفاعل

الإبستيمولوجي بين المؤول والرواية، بوصفه تفاعلاً مؤطراً بـ"الحرارة الثقافية"، التي "تعني الكثافة والتعدّدية في التبادلات والمجابهات والمناظرات بين الآراء والأفكار والمفاهيم .. "[5].

تتّضح معالم "الاحتمال التأويلي" في سياق إبستمولوجي يتحكّم فيه مبدأ "التراكم المعرفي"، المتولّد من السيرورة الزمنية للفعل التأويلي. إنّ كلّ تأويل يتجلّى اشتغالاً معرفياً على النّص الروائي، فيتأطر بفلسفتي الفهم والتفسير، مما يُصيّرُهُ فعلاً مبنياً على احتمال معرفي خلاّق. إن تشييد الاحتمال الدلالي، المؤطر بالتعدّد، يتجلّى عبْرَ "الصراع" المضمر بين أراء الروائي ومواقفه المتضمنة في نصّه، وبين أراء القارئ ومواقفه أثناء تأويله للرواية. من هنا، فإنّ احتمال تأويلات ممكنة لنصّ روائي يقترن بصراع معرفي مُنْطلَقُه الإدراك، ومركزه بلورة "موقف فكري" يسعفُ في تبرير الفعل التأويلي المفضي لبناء احتمالات دلالية متعدّدة، مما يؤكد وجاهة هذا الفعل الذي يصير بموجبه "التأويل هو جدل المواقف"[6].

إنَّ فهمَ هذا الجدل قد يتأتى بواسطة التفكير في المكونات المولّدة "للصراع والنزاع"، بوصفهما فعلين داعمين لتنوّع الاحتمالات الدلالية ومساهمين في تقويّتها: أوّلهما مكوِّنُ النّص (العمل الروائي)، وفي مقدّمته اللغة بصفتها أداة تحقّق دوالاً محمّلة بالاحتمال. لهذا، تتجلّى الرواية في تكوّنها النّصيّ بوصفها مجالاً مناسباً لانبثاق الاحتمال جرّاء الصراع والنزاع بين «الدلالة الحرفية الساكنة» للنّص، و"دلالته المتحركة"[7]. وثانيهما مكوِّن السياق (التاريخ والمجتمع)، على اعتبار "أنّ النّص يوجد مُحاطاً بسياقات مختلفة"[8]، مما يفضي لضرورة الوعي بها، ومراعاتها أثناء بناء دلالة الرواية وكشف أبعادها على مبدأ الاحتمال. إنّه وعيٌ من شأنه أن يحوّل تأويل الرواية إلى لحظة معرفية تهتمّ بعلاقاتها المختلفة وتكشفها، وتنفتحُ على احتمالات متعدّدة؛ يبقى أهمها احتمال وجود علاقة بين الرواية والوسط الاجتماعي،

بحمولته التاريخية والثقافية، واحتمال تأثير هذا "الوسط" في تشييد الدلالة وبناء المعنى. بهذا المعنى، فإنّ التأويل الذي يربط الإبداع الروائي بمحيطه الاجتماعي الثقافي قد يكونُ متولِّداً من علاقة صراعيةً، تكمنُ قوتها الإنتاجية في أفُقِها الإبستيمولوجي الذي لا يَتوخّى تحقيق انتصار أي طرف، فيتبيّن أنّ "التأويل معركة بين الأدبي والاجتماعي. معركة ليس من مصلحة أحد أن تُفهم على غير وجهه"

تظهرُ معالم انفتاح النّص الأدبي على احتمالات تأويلية متعدّدة ومختلفة تقترنُ بالإنسان، سواء أكان إنساناً ممتلكاً لتجربة معرفية ووجودية غنيّة، أم كان إنساناً متميّزاً بأفعالٍ دالة على كينونة مُبادرة ومُنتجة. بهذا المعنى، فإنّ أُسَّ الاحتمال في تأويل النّص الروائي هو الإنسان، سواء أكانَ الإنسان القائم بفعل التأويل أثناء دارسة النّص الروائي وتحليله، أم كان "الإنسان النّصي"، بوصفه كائناً متخيلاً في هذا النّص، المنصبّ عليه الفعل التأويلي، ما دام أنّ التأويل هو "عالم أو فضاء التجربة الإنسانية في علاقاتها بتاريخها وحقيقتها وذاته"[9].

يُنتجُ اقتران السرّد الروائي بتأويلات ممكنة، إذاً، تحقّقاً فعلياً للاحتمال التأويلي. إنّ هذا يُسعفُ في تحقُّقِ كينونته على مبدأ الوجود الفعلي، وليس على مبدأ التصوّر الممكن. لهذا، إذا كانت الرواية تنفتح على تأويلات محتملة، فإن ذلك نابعُ من طبيعة الفعل التأويلي الذي يَتَحَقَّق من داخل فهمٍ خاص للقائم بفعل التأويل. وما دام كلّ مؤول للرواية يستندُ إلى فهمٍ ذاتي في التأويل، فإنهُ سيكون، بالضرورة، تأويلاً محكوماً بالاختلاف، لأنّ كلّ مؤول يوجّههُ فهمه الذاتي والخاص، بوصفه فهماً دالاً على "ذاتية" الفعل التأويلي المتصل بالتفكير العقلي، والمرتبط بالذوق الشخصي. لهذا، فإن انفتاح الرواية

على تأويلات محتملة فعلياً، يستمدُّ أساسُهُ من الارتباط القويّ بين التأويل والفهم؛ من منطلق أنّ "التأويل موضوعه فَهمُ ما يقال"[10].

يظهر أنّ التأويلَ "حوارٌ" نوعيٌّ مع النَّص؛ حوار معرفي أسُّهُ الفهم، ومنتهاه إنتاج المعنى وبناء الدلالة. من هنا، فإنّ الاحتمال التأويلي يحقِّق وجوده الفعلي بناء على معطيات تخصُّ الذات المؤولة، وأخرى تخصُّ النّص المؤوَّل. لهذا، فالذات القائمة بالتأويل تستند إلى عمليات تأويلية متعدّدة، لاقتراح دلالات ممكنة للنّص الروائي. إنّ ذلك يظلُّ مشروطاً بمراعاة موقع الذات المؤولة، وسياق التأويل، والطبيعة النوعية للنص المؤول؛ حيث يجب "على كلّ تأويل أن يكيِّفَ نفسه للموقف التأويلي الذي ينتمي إليه"[11]. تدعمُ مقولتي "التكيّف" و"الموقف التأويلي" الكينونة الفعلية لتحقّق الاحتمال التأويلي، أثناء تأويل النص الروائي. إن فاعلية الفعلَ (التكيّف) والسيّاق (الموقف) كامنة في تحرير الرواية من أيّ "انغلاق" دلالي؛ على اعتبار أنّ كلّ فعلٍ ملازم للتكيف مع الموقف التأويلي يؤثر في القراءة التأويلية.

يحيلُ التكيف مع الرواية، بناء على طبيعة الموقف التأويلي، على إمكان اقتراح دلالات مختلفة ومتعدّدة للنص الروائي؛ باعتبار ذلك نتيجة لطبيعة و"طريقة" التكيف التي تختلف، بكلّ تأكيد، بين القائمين بالتأويل، ونتيجة "اختلاف" سياقات التفاعل المعرفي التأويلي مع النّص الروائي. إنّ اختلاف المؤولين وسياقات التأويل يسهمُ في تأكيد التحقّق الفعلي للاحتمال التأويلي. إنه تحققٌ تدعمه الإجراءات التأويلية؛ على اعتبار أنها إجراءات تنتجُ دلالات بمنظور ذاتي، فتكون مختلفة عن غيرها من الدلالة التي ينتجها إجراء تأويلي أخر، ليتجلى "أن أي إجراء تأويلي هو مجموعة من الاحتمالات باتجاه الفهم لا تستطيع بحدّ ذاتها أن تقرِّر كيفية تحققها وهي تسمحُ عادة بتطبيقات شديدة الاختلاف"[12].

3.الاحتمال التأويلي: مركزية التّعدّد

يتبدّى الاحتمال التأويلي، للسرد الروائي، مشروطاً بتفاعل خلاَّق بين النّص والقارئ؛ فيصير الاحتمال متولِّداً من "طبيعة" النّص وبنيته اللغوية النّصية، ومن «كينونة» القارئ واستراتيجياته القرائية ورهاناته التأويلية. بهذا المعنى، فإنّ الاحتمال التأويلي، المساهم في تحقيق التعدّد الدلالي للنّص الروائي، يرتبط بعدّة مقولات متحكّمة في الفعالية التأويلية، يبقى من أهمها: الوَضعُ والفَاعلُ والسَّيرورةُ والتَّفاعلُ. إذا كان الوَضعُ التأويلي يقترن بالإطار العام المصاحب لتكوّن الدلالات المحتملة (الظروف والملابسات)، فإنّ الفَاعلَ يحيلُ على مُنتجِ التأويل (المؤول) والمحفّز على القيّام به (المبدع)، انطلاقاً من الامتلاء الفكري والثقافي والإيديولوجي المميّز لكلِّ واحد منهما. وإذا كانت السيرورة تومئ إلى تعدّدية زمنية ومكانية تحيط بتحقّق التعدد في التأويل، فإن التفاعل بين المؤول والنّص يترجمُ حواراً معرفياً بينهما، من زاوية الإنتاج والتلقي.

يَظهر أن أُسَّ الاحتمال التأويلي لرواية محقّقٌ في مركزية التعدّد الدلالي. إنّه تَعدُّد متولِّد من تركيبة النّص، ومن نوعية مؤولِه، ومن سياق التأويل. لهذا، إذا نظرنا للترابط المتين بين التأويل والفهم، لتبيَّن أنه "عندما نحاول أن نفهم نصّاً ما، فنحن لا نحاول أن ننتقل إلى داخل عقل المؤلِّف، إنما نحاول أن ننتقل إلى داخل المنظور الذي كوّن فيه المؤلِّف أفكاره"[13]. إنّ سيرورة تكوّن النّص، بما فيه النّصّ الروائي، تبيّنُ الكيفية التي يشتغلُ بها التعدّد الدلالي، بصفته مَلمحاً دالاً على الاحتمال، ومؤكداً لوجوده الفعلي. لا يهمُّ مُنتجُ النّص، بل ما يهمُّ هو النّص في تحقُّقه بمرتكزات نوعية تقوّي الاحتمال، وتسعفُ في إنتاجه وبلورته. لهذا، فإنّ مُؤوِّل النص الروائي ينطلق من فهمه له، أثناء تشييد تأويلاته، وليس من بحثه عن "مقاصد" المؤلِّف ونواياه. يظهرُ أن مركزية التعدّد الدلالي

المرتبطة بالاحتمال التأويلي مقترنةٌ بالذات المؤولَة، وتفاعلها المعرفي مع النّصّ الروائي. إن تشييد دلالة الرواية لا تقف عند مؤول محدّد، بل تقترن بمؤولين مختلفين جرّاءَ تفاعلهم معها، ضمن سيرورة تاريخية أو رؤية "ذاتية" تقوّي انفتاح المجال الدلالي لهذا النّص (الرواية)، على اعتبار "أنّ النّص لا يُحيلُ إلى معنى ثابت، بل هو حدثٌ مُرتبط بالقارئ الذي يمنحه معنى ما غير نهائيّ"[14].

ينفتح النّص الروائي، وِفْق هذا الفهم، على التّعدّد في المعنى والدلالة؛ لأنَّ التَّعدّد نتيجة لتنوّع قراء النّص في أزمنة تاريخية مختلفة، واختلافهم في الفهم والإدراك المؤثِّر على التأويل. بالنتيجة، فإنّ "النص احتمال دلالي فقط، ولو لم يكن كذلك، لما اختلف الناس في قراءة النصوص" [15]. يتبيّن أنّ دلالات النص الروائي تبقى مفتوحة على تحقُّقٍ احتمالي، بفعل الاختلافات الناجمة عن اختلاف القرّاء. لهذا، فإن مبدأ التّجلي في الرواية لا يمكن إدراكه إلا في ضوء مبدأ الإمكان. من هنا، فإذا كان النّص الروائي يبني كينونته على التّجلّي والبروز القابل لوصف عناصر وجوده، وتحديد خصائصه وحدوده، فإنّ أبعاده ودلالاته يؤطرها الاحتمال كما تحيلُ عليها أنساقُه النّصّ الإشاري وسُنُنُه الرمزي المختلفة المكونات لنصّيّة الرواية. لهذا، فإنّ الدلالة يتأسس وجودُها على الاحتمال، بينما تحقُّق الدلالة إنتاجياً يقوم على التّعدّد؛ على اعتبار أنّ "الرواية الحديثة .. لا تتحمّل التفسير الذي يفرض معنى"[16].

إذا كانت الرّواية كائنةً في تجلّيها، فالدلالة تكونُ ممكنةً (محتملة) في تحقُّقها. وإذا كانَت الرواية مُفردة في وجودها، فإنّ الدلالة تَبدو متعدّدة في احتمالاتها. بهذا المعنى، فإذا افترض القارئ لدلالات ممكنة، أثناء دراسة الرواية، فإنَّه يتمكّن مِنْ إغناء أبعادها وتعميق الوعي بدلالاتها وِفْق مبدأ الانفتاح الذي تؤطره مقولة المحتمل (الاحتمال)، وليس

بناء على مبدأ الحصر الذي تشكّلهُ مقولة الموجود (الكائن). لهذا، فإنّ الاحتمال الداعم للتعدّد الدلالي للرواية ليس مجرَّدَ "إمكان" متولّد من تأويلها وتفكيك عوالمها، بل إنّ الاحتمال "حتمية" تؤطر الوجود الفعلي للرواية أثناء تكوّنها، مما يفتح مرجعيتها النّصية على مبدأ تعدد الأحداث برمزيتها المعرفية الشاسعة؛ حيث "إنّ المعرفة التي تمنحها الرواية شاسعة بمقدار تنوعها"[17]. لهذا، فمن العبث أنْ "يؤمن" قارئ معيّن باقتراحه أو وصوله إلى "التأويل النهائي"، لأنَّ ذلك سيصير "إيماناً" منفلتاً من الضوابط الإبستمولوجية التي تقّر بالتعددّ في بناء الدلالة، مما يؤكد التحقّقَ الفعلي للاحتمال؛ لأنَّه "سيكون تأويلاً بئيساً ذاك الذي آمن بإمكان أن تكون، أو وجب أن تكون له الكلمة الأخيرة"[18].

يؤكد هذا المنظور المعرفي مركزية التعدد الدلالي المقترن بالاحتمال التأويلي بوصف التعدّد وجوداً معرفياً معقولاً، وباعتبار إنتاج الدلالة، من منظور ذاتية المؤول، «فعلَ اعتقاد» مؤطرّ برؤية وفرضيات ومنسوب معرفي وخلفيات .. إلخ. بهذا المعنى، فإنّ التصوّر الاحتمالي لدلالة الرواية، باعتبارها مُتحوّلةً باستمرار، يؤكّد ديمومة التوّلد الدلالي وتعدُّده. وبالتالي، تظلُّ الدلالة مقترنة بالاحتمال، باعتباره مبدأً متحكّماً في فاعليته التأويلي المنتجة للتعدّد، وإنتاجيته الفعلّية التي تجعل رواية واحدة مفتوحة على دلالات متعددّة، بما فيها الدلالات التي قد ينتجها قارئ واحد لنفس الرواية إذا تغيرات "زاوية" القراءة ومنطلقاتها وأزمنتها وأمكنتها. لهذا، فإنّ اقتران الاحتمال الدلالي بالتأويل مؤّسسٌ على الإقرار بنسبية القراءة التأويلية، وبغياب التحقق الفعلي للتأويل النهائي الحاسم؛ حيث «إنّ التأويل النهائي هو بكلّ بساطة غير موجود. فكلّ تأويل يسعى إلى أن يكون اقتراباً فقط»[19].

يَبْني الاحتمال التأويلي التعدّد الدلالي للنّص الروائي ضمن سياق جدلي؛ فيصيرُ التعدّد مقترناً بالاحتمال، ويغدو الاحتمالُ متّصلاً بالتعدّد. بهذا المعنى، فإنّ الرواية

تؤسس وجودها وكينونتها على وجود قارئ يقدّم دلالاته بوصفها احتمالاً، ويقدّمُ "قراءة ممكنة"، وليس "قراءة صحيحة". من هنا، فإنّ الاحتمال التأويلي يخلِّص الرواية من حتميّة الدلالة، ويُبعدُ القارئ عن يقينية الفهم؛ ما دام "أنّ القراءة الصحيحة أمرٌ صعبٌ. فهي تقتضي أنْ يُحقّق المرءُ الفهمَ الصحيحَ. ومعنى "الصحيح" هنا نسبي دائماً"[20]. بهذا المعنى، أمكن الحديث عن الدلالات الكائنة (المحقّقة) التي ينتجها مؤول الرواية بوصفها من الدلالات الممكنة التي فرضها الاحتمال التأويلي للنص الروائي؛ مما يؤكد مركزية التعددّ أثناء تأويل الرواية. إنّه تعدُّد يكفلُ للرّواية، بحكمِ طابعها الفنّ، استمراريةً في الوجود الإنساني الثقافي؛ لأنّ "العمل الفنّي، في المخيال الفردي أو العمومي، يعيش من تعدد التفاسير الممكنة، ومن الأحكام المدققة، المتناقضة أحياناً والمتغيّرة التي يستثيرها"[21].

يظهر أنّ إنتاجية الاحتمال الدلالي تكشفها مركزية التعدّد المتولّدة من "الفهم" الخاص الموجِّه لتأويل النصّ الروائي؛ بوصفه فهماً مؤطراً لوظيفة التوليد الدلالي التي يمارسه كلّ قارئ، فتصير مهمته التأويلية الأساس هي تقديم الفهم الخاص للنص، انطلاقاً من المداخل التي يستند إليها هذا القارئ في بناء تأويله؛ من منطلق "أن مهمة كل قارئ أن يجعل النّص يتكلّم مرّة أخرى"[22]. إنّ القراءة الفعّالة تعدُّ منطلقاً لتحقيق التعدّدّ الدلالي عَبرَ فاعلية "كلام" النّص الروائي الجديد، "كلام" ينتجه القارئ أثناء بناء دلالة الرواية وتشييد معناها. بهذا المعنى، فإنّ فاعلية القراءة تجدُ أساسها في تأكيد التحقق الفعلي للتعدد الدلالي للنص الروائي، مما يصيّرُ القراءة التأويلية داعمةً للاحتمال، بناءً على خاصية "الانبثاق" التي تصاحب فعالية القراءة؛ لأنّ "القراءة تعني دائما جعل صوت النّص ومعناه ينبثقان"[23].

يتّضح أن الاحتمال التأويلي يقوم على دعم "الحق" في تأويل الرواية وقراءتها، وما يستتبعهما من تشييد للدلالات والأبعاد "الجديدة" لها؛ لأنه حينَ أجيز لنفسي الحقّ في

إنتاج دلالات وبناء أبعاد معيّنة، تخصُّ محمولات الرواية وأدواتها، فإنّ ذلك يعني أنني أبيحُ لقارئ آخر، بموجب الحق، أنْ يبني أبعاداً وينتج دلالاتٍ أخرى ممكنة لهذه الرواية. وكأن الاحتمال التأويلي مرهونٌ وجوده وتحققُه بقيمتي الحرية والحق؛ حريّة الذات والآخر(ين) في بناء دلالات ممكنة للرواية، وحق الذات والآخر(ين) في القيام بفعل التشييد الدلالي، لأنه "حين أجيز لنفسي الحق في النقد، فقد يأتي ذلك سلبياً، سواء للتعريض أو للحكم المبرم، وقد يحصل أنني أخطئ في الحكم. لكن الأساس هو أنني أقر بشكل ضمني للآخر بحق مماثل له، سواء إذا وافق أو اعترض على ما ذهبت إليه"[24].

4.احتمالات التأويل: الإنتاجية الهرمينوطقية

إنّ التأكيد على مبدأ التعدّد الدلالي المقترن بكلُّ احتمال تأويلي للرواية يفضي لطرح السؤال الآتي: ماذا ينتج الاحتمال التأويلي للرواية؟

يحيلُ الاحتمال التأويلي على القراءة النقدية المنتجة، مما يجعل الاحتمال التأويلي مدخلاً لتعميق الوعي بالنّص، ومنه النّص الروائي، بفعل الدلالات المتعدّدة التي ينتجها الاحتمال بوصفه فعالية قرائية وتأويلية. بهذا المعنى، فإن الإنتاجية الإبستمولوجية للاحتمالات التأويلية تظهرُ في "إغناء" عوالم النَّص الدلالية. إنّ هذا الإغناء يتطلّب ربط الاحتمال الدلالي بـ"القراءة الفعّالة"، وليس بـ"القراءة الشارحة"؛ لأنّ "القراءة الفعّالة" منتجةٌ وكاشفةٌ وداعمةٌ للتعدّد الدلالي الخلاّق للنص، ولأنها "قراءة متشكّكة تتهم المباشر وترفض البداهات، وهي تسعى أن تكشف في بياض النّص المسوَّدة التي تختفي من ورائه، تحاول أن تنعش مسوّدة النّص، تحاول أن تنتج العملية الفعلية للكتابة، تلك العملية التي ليست عملية إظهار وتملّك للمعنى الواحد"[25]. بهذا المعنى، فإن الاحتمال التأويلي، المفضي لإنتاج دلالات متعدّدة للنص الروائي في سيرورة وجوده وتلقّيه، يدعمُ الفعل التواصلي

المعرفي للقراءة النقدية الفعّالة؛ لأن الناقد المؤول يُسهم بإنتاجه في جعل التواصل المفترض مع "قارئ معيّن" داعماً لأفق معرفي غني، ومساهماً في رفع المنسوب الثقافي لديه. كما أنّ الاحتمال التأويلي قد يدرج الإبداع الروائي ضمن إطار ثقافي جمالي يكشفه فهم المؤول (الناقد) لهذا الإبداع، وما يترتب عن هذا الفهم من إنتاج لأفكار توحي بها أحداث النص الروائي، ومضمراته الثقافية والسردية والفنية.

ترتبط إنتاجية الاحتمال التأويلي بـ"فرضيات" القراءة التأويلية، بوصفها قراءة مرتبطة بالبناء والتفكير. بهذا المعنى، فإن القراءة الخلاّقة تفتحُ النص الروائي على احتمالات دلالية جديدة؛ فتصير الممكنات التأويلية مشروطة بفرضيات القراءة وعمليات التأويل واستراتيجياته، وبـ"قوة" فهم النص وبناء دلالات جديدة. يتّضح أنّ القراءة داعمٌ أساسٌ لإنتاجية دلالية، فيتبدّى الاحتمال مقترناً بأيّ "نموذج قرائي" لا يرى نفسه قادراً على إنتاج الدلالة النهائية أو الحقيقية للرواية، بل يعتبر فِعلَهُ التأويلي مدخلاً لإنتاج دلالة ممكنة ومغايرة للمألوف؛ لأنّه "سيكون القول بإمكانية الإحاطة الكلّية بالدلالة النهائية للنص ضمن قراءة واحدة شاملة أمراً في غاية الغرابة. فأبسط نصّ سردي لا يمكن أن يكون حاملاً لدلالة واحدة، ولا يمكن أن يكون تحقّقاً كلّياً وشاملاً لأي نموذج"[26].

تكشف الإنتاجية المعرفية للاحتمال التأويلي، إذاً، "قوة" الرواية؛ قوة يبرزها انفتاح عالمها النّصي على عدّة دلالات، تولّدها قراءات مختلفة ومتعدّدة في الزمن والمكان. إنّه انفتاح يسوّغُ تأكيد إنتاجية الفعل التأويلي؛ بوصفها إنتاجية تجدُ تجلّيها الأبرز في التنوّع الدلالي للنّص الروائي، مما يصيّره مفتوحاً، بكلِّ مكوناته الخطابية والسردية، على أبعاد مثيرة ودلالات مدهشة، قد يقترحها هذا القارئ أو ذاك، ارتباطاً بسياق التأويل. لهذا، فإنّ التأويلات الجديدة للنّص الروائي قد تُسْهمُ في إنتاج أفكار متعدّدة، وبناءِ مواقفَ مختلفة،

وتُظهرُ جماليات مضمرة ..؛ حيث يتبدّى الاحتمال التأويلي مساهماً في تشييد المعرفة، وفي تنمّية المعارف المتّصلة بالعوالم المتنوّعة للرواية. من هنا، فإنّ تأويل الرواية، بطابعه الاحتمالي، يُساهمُ في تحقيق إنتاجية معرفية نوعيّة حول النّص الروائي، فيكفلُ استمراره "الوجودي" الدّال؛ ما دام "أنّ الأعمال الأدبية لن تتمتع بالبقاء إلا إذا سمحت لنفسها بالتّغيُّر، أي إذا شرّعت أبوابها أمام التأويلات الجديدة وأظهرت أنها قادرة على أداء وظائف جديدة"[27].

إنّ التغيير يفضي لتحقيق الاحتمال، في مستويات مختلفة، لأن التأويل يتولّد من فهم نوعي وسياقي للنص الروائي؛ فيصير الفهم مدخلاً لتشييد دلائل جديدة، فيغدو "فعالية إنتاجية". لهذا، فإنّ الاحتمال التأويلي تتحكّم فيه سلطة الفهم، التي بدورها تقوّي سلطة انفتاح النّص على التجدّد الدلالي الدائم؛ لأن "اكتشاف المعنى الحقيقي لنص ما، أو لعمل فنّي لا ينتهي مطلقاً؛ فهو في الواقع عملية لا متناهية"[28]. من هنا، تولّد إنتاجية الاحتمال التأويلي من الفهم، لأنّ وظيفته الإبستمولوجية تمكّن من اقتراح دلالات محتملة وأبعاد ممكنة للعلامات المشكّلة للمرجعية النّصيّة للرواية. لهذا، فإنّ الفهمَ يخلّصُ الرواية من انغلاقها على مدلولات محدّدة وجوهرية، ويفتحها على مدلولات احتمالية يمكن توليدها من بنيتها ومكونات بنائها داخلياً، ومن نظام علاقاتها مع معطيات ثقافية وحضارية واجتماعية .. الخ. بهذا المعنى، فإنّ القوة الإنتاجية للاحتمال التأويلي للرواية كامنة في إمكان بناء تعدّد دلالي فكري للرواية؛ تعدّدٌ يسهمُ الفهمُ في تشييده، ويؤكد على حقيقته إمكانه، ما دام "أنّ الفهمَ يتضمّن التأويل كشيء ممكن"[29].

يعمّق الاحتمال التأويلي الوعي بعالم النّص الروائي، عَبْر فهم خاص يؤكدُ التأويل بوصفه فعالية يؤطرها الاحتمال. لهذا، فإنّ الاحتمال يبيّن أهمية الفهم في كشف "المضمر"

و"المغيّب" و"المنسي" في الرواية، أو في قراءات أخرى لها. إنّ الإنتاجية المعرفية للاحتمال التأويلي تقترن ببنية "**كما لو**"؛ لأنها بنية "تفجّر أفعالاً تصوّرية لدى المتلقّي تجعله يدرك ما يهدف عالم النّص إلى إثارته"[30]. إنّ بنية "كما لو"، بلغة فولفغانغ إيزر، تعمّق الإنتاجية التأويلية للنص الروائي، لأنها تجعل الفعالية الهرمينوطيقية قائمة على بناء المعنى، انطلاقاً من الرؤية دينامية للمؤول من جهة، ومن الطبيعة التكوينية لمعنى النص الروائي في سيرورة تاريخية من جهة ثانية. بهذا المعنى، إذا كان بناء المعنى يدلُّ على وجود عملية إنتاج نوعي وخاص فرضه الاحتمال التأويلي، فإنّ الاختلاف يظلّ سمةً مميزة للقائمين ببناء المعنى، بحكم اختلاق «طرق» تعاملهم مع التجربة الخيالية المؤسسة للفعالية الإبداعية؛ مما يعني أنّ "المعنى ليس مسجلاً في النّص كشيء ملموس، بل هو نتيجة عملية تحويل حتمية تثيرها وتساندها ضرورة التعامل مع تجربة الخيالي"[31]. لهذا، فإنّ الاحتمال التأويلي، الذي ينتج الدلالات ويبني الأبعاد الممكنة، يندرج ضمن سيرورة التفكير في الرواية، فيصير الإمكان (الممكن) الدلالي لها "شيئاً" معرفياً مبنياً، وليس عنصراً "موجوداً" بشكل قصدي فيها.

---

[1]- ناظم عودة، **تكوين النّظرية: في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009، ص: 35.

[2]- جونتان كولر، **مدخل إلى النظرية الأدبية**، ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 514، ط1، 2003، ص: 29.

[3]- نفسه، ص: 18.

[4]- ديفيد كونزنز هوي، **الحلقة النقدية: الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقا الفلسفية**، ترجمة: خالدة حامد، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)- بغداد (العراق)، ط1، 2007، ص: 165.

[5]- إدغار موران، **المنهج: الأفكار، مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها (ج4)**، ترجمة: جمال شحيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012، ص: 46.

[6]- مصطفى ناصف، **نظرية التأويل**، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، مارس 2000، ص: 175.

[7]- نفسه، ص: 187.

[8]-Dominique Maingueneau, ***Les termes clés de l'analyse du discours***, éd. Seuil, Paris, 1996, p : 23.

[9]- هانز غيورغ غادامير، **فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف**، ترجمة: محمد شوقي الزين، الاختلاف-المركز الثقافي العربي- الدار العربية للعلوم ناشرون، ط2، 2007، ص: 32.

[10]- مصطفى ناصف، **نظرية التأويل**، ص: 52.

[11]- هانز جورج غادامير، **الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية**، ترجمة: د.حسن ناظم- علي حاكم صالح، دار أويا، طرابلس، ط1، 2007، ص: 521.

[12]- بول ب. آرمسترونغ، **القراءات المتصارعة: التنوّع والمصداقية في التأويل**، ترجمة وتقديم: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009، ص: 50.

[13] - نفسه، ص: 400.

[14]- د. عبد الرحيم جيران، **النصّ الأدبي: لعبة المرايا**، الدار المغربية العربية، الرباط، ط1، 2016، ص: 96.

[15]- سعيد بنكراد، «**حوارات**»، حوار: محمد جليد، الدوحة (مجلة)، قطر، العدد 133، نوفمبر 2018.، ص: 65.

[16]- فرانك كرمود، «**الرواية والسّرد**»، ضمن: **نظرية الرواية: مقالات جديدة** (كتاب جماعي)، ترجمة: محي الدين صبحي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981، ص: 252.

[17]-Nathalie Piégay -Gros, ***Le roman*** , éd. Flammarion, Paris, 2005, p : 21.

[18]- هانز جورج غادامير، **الحقيقة والمنهج**، ص: 735.

[19]- هانز جورج غادامير، **منْ أنا ومنْ أنت: تعليق حول باول تسيلان**، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، ط1، 2018، ص: 139.

[20]- نفسه، ص: 188.

[21]- مارك جيمينيز، **ما الجمالية؟**، ترجمة: د. شربل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص: 413.

[22]- هانز جورج غادامير، **منْ أنا ومنْ أنت: تعليق حول باول تسيلان**، ص: 185.

[23]- نفسه، ص: 185.

[24]- مارك جيمينيز، **ما الجمالية؟**، ص: 126.

[25]- عبد السلام بنعبد العالي، **القراءة رافعة رأسها**، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2018، ص: 7.

[26]- سعيد بنكراد، **سميائيات النّص: مراتب المعنى**، ضفاف-دار الأمان-الاختلاف، بيروت-الرباط-الجزائر، ط1، 2018، ص: 121.

[27]- بول ب. آرمسترونغ، **القراءات المتصارعة: التنوّع والمصداقية في التأويل**، ص: 181.

[28]- هانز جورج غادامير، **الحقيقة والمنهج**، ص: 408.

[29]- نفسه، ص: 522.

[30]- فولفغانغ إيزر، **التخييلي والخيالي من منظور الأنطربولوجية الأدبية**، ترجمة: د. حميد لحمداني – د. الجلالي الكدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص: 23.

[31]- نفسه، ص: 26.